علاقة المكان بجهة القول في الخطاب الروائي المغاربي رواية "ثقل العالم" لسعيد بوكرامي نموذجا

عبد المنعم شيحة

جامعة منوبة تونس

I. مدخل:

هل من علاقة بين التشكل القصصي للمكان في الرواية المغاربية وجهة القول التي تتحدث عن ذلك المكان وتمنحه من خصوصيتها، وتنظر إليه وفق جملة اعتقاداتها في العالم والأشياء التي ترصدها وتنقلها إلى مرويّ له بغية التأثير فيه ومخاتلته وإقناعه بما تعتقد؟

إنّ الكلام في رأي فاولر، يرد مشوبا بذاتيّة المتكلّم مهما كان نزوعه إلى الحياد والموضوعيّة. فما بالنا بالكلام الأدبيّ الذي ينبغي أن ندرس فيه من جملة ما ندرس السمات الذاتيّة التي تجسّمها جهات الأقوال لأنّه– في الرواية أساسا– ينأى عن كونه مجرّد نقل للأخبار ليصبح قولا فنّيا مفعما" بمعتقدات القائل ومواقفه وأحاسيسه يجريها على هيئات شتىّ" على حدّ قول الدكتور محمد الخبو، فكيف يكون الأمر لو تعلّقت جهة القول هذه بأدقّ خصائص الخطاب الروائي المغاربي في رأينا وهي الإطار المكانيّ حمّال الأوجه وصنو التغيّر والكون الذي لا يفتأ يُصاغ في هيئات لا نكاد نحصيها.

لقد اخترنا أن نختبر أقوالنا حول جهة القول ودورها في التشكّل القصصي للمكان في الرواية المغاربيّة اعتمادا على رواية "ثقل العالم" للروائي المغربي سعيد بوكرامي التي نشرتها مجلة الكلمة الإلكترونيّة لصاحبها صبري حافظ (عدد ديسمبر 2007). وقد شدّنا إلى هذه الرواية ما بدا فيها من تضخّم للخطاب وعناية بالتلفّظ واستتباعاته التي تنوّعت واختلفت، وكذلك غزارة المواقف والتوجيهات

والأحكام القيميّة والانفعالية التي تطلقها الذات المُدركة على جملة مُدركاتها. هذا إلى جانب الذاتيّة(subjectivité) المُبالغ فيها من الشخصيّة الراوية للأحداث تجاه الأخبار التي تسوقها عن الأشياء المُدركة والمُحال عليها. وقد خصّ هذا الراوي– الشخصيّة مكان الأحداث في هذه الرواية وهو مدينة الدار البيضاء بجملة من التقويمات والأحكام والتوجيهات التي رأينا أنّها جديرة بالاهتمام والتمحيص لعدّة اعتبارات، منها:

♦ **أوّلا:** خصوصيّة الذات الموجّهة (sujet modal) التي تنجز الأفعال التوجيهيّة في هذه الرواية. فهي ذات تسرد أحداثا وقعت لها من موقع الذاكرة بعد أن انتهى بها المطاف في مشفى للأمراض النفسيّة. وهي تتوجّه بروايتها بطريقة مباشرة إلى ذات أخرى في مقام المرويّ له هو القارئ المفترض تقصّ عليه ما وقع لها من أحداث أوصلتها إلى هذا المكان. يقول: "اسمحوا لي أن أتوقّف للحظة، لأبدأ من البداية، لم تكن لديّ خيارات عديدة لكنّ الشيء الذي أتذكّره ويمكن أن أشدّ به رأس الخيط لتكون لهذه الحكاية بداية...أنتم تعرفون وأنا أعرف والله يعرف أنّ الضرورات تبيح المحظورات" (ثقل العالم ص2).

♦ **ثانيا:** ظهور نيّة التأثير في المرويّ له، وإقناعه بجملة معتقدات الراوي وتقويماته، بما فيها تلك الأحداث الغامضة التي تقع في مسافة بين الحقيقة والحلم(أو الخيال) مع منظّمة الطريق إلى المستقبل والتي انتهت به إلى مستشفي المجانين تلاحقه الكوابيس والهواجس وأحلام اليقظة. ثمّ الإصرار في نهاية الرواية على هذه الغائيّة–أي التأثير في المرويّ له– إذ يقول في آخر صفحات الرواية:" توقّف الآن عن القراءة وتخيّل معي، أنا أجلس على أحد كراسي حديقة المشفى..."(ثقل العالم ص44).

♦ **ثالثا:** خصوصيّة المصوغ من المُدركات، أو جملة الأشياء المحال عليها أثناء إنجاز عمليّة القول داخل القصّ وخاصة مرجع المكان(أي الدار البيضاء)

الذي يتشكّل قصصيّا وفق تمثّلات شتيّ، ويُقدّم لنا في صيغ سرديّة، قصيرة، مبتورة، متشظّية، تتكيّف مع انفعالات مرجع القول الرئيسي في هذه الرواية–عبد الرزاق المتوكّل– ومشاعره، لتبدو لنا في لبوس مشوّه، قاتم، متداع، أو آيل للسقوط كما سنرى لاحقا. كما أنّ جملة تمثّلات هذه المدينة(أي العمارات والشوارع والمقاهي والمدينة العتيقة والطرقات والأزقّة...) هي مجرّد تنويعات أو تفصيلات دقيقة لهذا الوجه القاتم للمدينة.

- ✓ فكيف تحيل الذات المُدركة على هذه المدينة وهي تصفها، أو تتفاعل معها وتسعى ضمن تفاصيلها؟
- ✓ وكيف تتشكّل مدينة الدار البيضاء قصصيّا في هذه الرواية؟ وماهي علاقاتها بجملة العناصر القصصيّة الأخرى مثل الزمان والشخصيّة؟

II. مرجع القول ودوره في تشويه المكان في ثقل العالم:

1. تقديم الرواية: (الدار البيضاء دار لا مستقبل فيها)

تبدأ الرواية والشخصيّة الراوية للأحداث تجلس في مشفى للأمراض النفسيّة، تحاول أن تتكيّف مع العالم من حولها في هذا الركن من المدينة الذي يعني عادة نهاية أحداث ما..لذلك يسعي الراوي إلى البحث عن نقطة بداية لما آل إليه حتى يقنع من يخاطبهم بأنّ ما يعيشه في اللحظة الراهنة هو الراحة والخواء قياسا بمعاناته في عالم ما قبل المشفى. وعندما يبدأ عبد الرزاق المتوكّل سرد حكايته نفهم أنّة قسمها إلى قسمين:

* قسم وقائعي، يسرد فيه نتفا من حياته في شغله وفي بيته وفي مدينة الدار البيضاء، بمقاهيها وحاناتها وشوارعها وأزقّتها، حيث يعيش ويسعى ويلتقي بعض أصدقاء الماضي أو الخنساء صديقة طليقته، أو المدينة القديمة التي يذهب

إليها لزيارة أمّه وأخته. وقد تميّز هذا القسم بكثافة الأحكام والتقويمات والمواقف التي يطلقها الراوي تجاه ما يُحيط به وخاصة مرجعيّ الزمان والمكان.

* قسم سرياليّ إذا شئنا يبدأ بالركض صباحا تجاه طريق الجامعة العربيّة بعد ليلة وداع حميميّة مع الخنساء، لينطلق إلى الموعد السرّي مع منظمة الطريق إلى المستقبل. ثمّ يتداعى السرد إلى جملة من التهويمات الشبيهة بالأحداث، وما هي من جنسها بمنطق السرد على الأقلّ. مثل الطابور الطويل الغامض والحرس المدجّج بالسلاح وطائرات الأباتشي والمشاهدات الاحتفالية الاستشهاريّة، وناقلات الجنود والجيش الأمريكي والعتاد الحربي الذي يلبسه المتخلون عن الطابور..لنصل إلى زواجه السريع من المرأة العجوز التي تسبقه في طابور الانتظار وحواراته الطويلة معها ومع العجوز الذي يقف خلفه. ثمّ تتداخل المراحل ويتفكّك الصفّ قبل قراره بالركض هربا من وهم الطريق إلى المستقبل ليستفيق في المشفى تطارده الكوابيس والهواجس ويعيدنا إلى نقطة بداية هذه الرواية.

لقد قام السرد في مجمله على حركة ارتداد إلى الوراء تتلوها ارتدادات، ثمّ تهويمات يروي من خلالها عبد الرزاق المتوكل جملة الأحداث التي قادته إلى شخصيّة تشعر بثقل العالم يجثم فوق صدرها. ومن خلال تداعي الحكايات نفهم بعض أسرار نهايته القاتمة. فعجزه عن التواصل مع الإدارة التي يعمل قسرا في أرشيفها راجع إلى رفضه أن يصبح موظّفا مرتشيا. وطلاقه من زوجته عائد إلى رغبتها في التحرّر من أسوار المدينة التي تعيش فيها إلى اسبانيا حلم شباب المغرب. وقد ساهم اكتشافه لهذه الحقائق على يدي الخنساء في تسريع التحاقه بمنظّمة الطريق إلى المستقبل أو لنقل في تسريع انهياره.

2. نحو توجيه المرجع:

يرتبط مرجع المكان في الرواية ارتباطا وثيقا بالذات المُدركة أو المبئرة وفق المصطلح الجيناتي، بعد أن تضخّمت فيها قصديّة التوجيه، بغية إقناع المرويّ له بحتميّة النهاية السوداويّة لعبد الرزاق المتوكّل وقد أعياه الركض اليومي في مدينة" تتحطّم فوق رؤوس السكان" (ثقل العالم ص25). ولفهم ذلك نشير إلى أنّنا لن ننظر إلى مضامين القول فيما تقوله الذات المتكلّمة (أي Dictum) وإنّما سننظر إلى جملة المواقف والاعتقادات والتوجيهات التي تتخذها هذه الذات ممّا تحيل عليه، وتدركه.والذي يُصطلح على تعريفه بالجهة (Modus ou Modalité) وهو كامن في وجهة نظر المتكلّم فيما يرى ويروي[1]. وسنركّز خاصة على الجهات المعرفيّة، والجهات التقويميّة التي ترتبط بما يبديه المتكلّم في كلامه من أحكام وتقويمات وتأوّلات للمضامين القضويّة(contenu propositionnel) التي يقولها[2]. هذه الأحكام قد نستخلصها في الرواية من أفعال الشكّ، واليقين، والإرادة، والتقويم، والمعرفة، وغير ذلك ممّا يتّصل باللغة، ونفهم من خلاله جهد التوجيه. هذا مع ضرورة انتباهنا إلى أنّ عمليّة التوجيه في القصص تأخذ أساليب متعدّدة يصعب حصرها بكيفيّة دقيقة أو حدّها سلفا.

ولكنّنا مع ذلك يمكن أن نلحظ درجات من عمليّة التوجيه يعتمدها المتكلّم كلّما أنجز عمليّة الإحالة على المكان تبدأ بالأحكام الذاتيّة البسيطة، وتنتهي على مواقف جوهريّة في عمليّة القصّ موغلة في القتامة والسوداويّة. ولفهم ذلك نستدلّ أوّلا بهذه الشواهد:

(ش1): "أشعّة الشمس مضغوطة تنفلت من السياج الحديدي للكوة الوحيدة لهذا القبر الأرشيفي" (ثقل العالم ص5).

(ش2): "في الطريق إلى العمارة رأيت الخيام منصوبة حديثا يقطنها سكان العمارة المتهدمة. أمّا عمارتي فوجدت أمامها أزبالا تتصاعد منها رائحة العطن التي تجرح العين وتذبح الصدر"(ثقل العالم ص7).

(ش3): "كلّما دخلت زقاقا إلاّ وجدت أشغال حفر، وكأنّهم يبحثون عن شيء ما لم يعثروا عليه بعد. مازالوا يبحثون عن كنز كان أبي يقول ساخرا" (ثقل العالم ص9).

(ش4): "لوحات الإشهار تنتصب كالفطر في كلّ مكان" (ثقل العالم ص15).

(ش5): "فتيات المقهى بين الفينة والأخرى ينسحبن إلى المراحيض لتعديل وجوههنّ استعدادا للسهر وعمل الليل تماما كالكثير من فتيات النهار اللواتي يدفنّ أجسادهنّ داخل المعامل والشركات ولا يجنين منها سوى البؤس والأمراض النفسيّة والعضويّة"(ثقل العالم ص18).

(ش6): "..وانصرفت أحاذر أن تسقط فوق رأسي بعض ألواح الدعم التي يستعملها العمال المنهمكون في ترميم مركز البريد. كثرت أوراش الترميم في الدار البيضاء وكأنّها تتحطّم فوق رؤوس السكان" (ثقل العالم ص25).

لقد رُكّب الكلام في هذه المقاطع بطريقة تكشف عن الاعتبارات الذاتيّة للمتكلّم، من قبيل تعليقاته العابرة والبسيطة على مُدركاته في مدينة الدار البيضاء مثل القبر الأرشيفي في(ش1) أو رائحة العطن التي تجرح العين وتذبح الصدر في(ش2) أو لوحات الإشهار كالفطر في(ش4). إنّ بعض مواقف الرائي من مدينة الدار البيضاء التي يُحيل عليها لا يزيد ظاهرها عن الإخبار أو الإثبات[3](Assertion). ولكنّ تنزيلها في سياق النصّ جميعه وتدبّر مقامات قوله المختلفة، قد تكشف لنا ما يختفي خلف إثباتاته من استهجان أو سخرية مُرّة من المُحال عليه. ففي(ش3) مثلا، وظّف أسلوب الحصر في صياغة تركيبه

[كلّما..إلاّ..] وأشرك المتقبّل في عمليّة إدراك المُدرك (وجدتَ) وكأنّ تقاسم عمليّة الإدراك يسهم في تأكيد الحدث الذي بات محصورا، مشروطا لا استثناء فيه، فلا يدخل المرويّ له الأزقّة إلاّ ويجد فيها أشغال حفر وترميم، وقد ذكّرته الصورة بتعليق لوالده عليها، فباتا مترابطين في ذهنه(أي الصورة والتعليق)، فلا تكون الرؤية إلاّ وتعليق والده عليها (أي مازالوا يبحثون عن كنز)مُنشدّ إليها، مرتبط بها. وعلى المرويّ له أن يربط أيضا بين الاثنين مادام مدعوّا إلى مُقاسمة الرائي الإدراك.

إنّ اللافت هنا، أنّ وجهة نظر الراوي فيما يروي تكاد تطغى على المرويّ، وتوجّه المسرود إلى غائيّة هذه الذات التي تتهاوى داخليّا، وتشعر بثقل العالم يجثم على صدرها، فتنقله قسرا إلى المكان الذي تحيا فيه وتصوغه وفق مُكابدتها وشعورها به.

لقد تأدّت وجهة نظر الرائي في(ش2) و(ش3) من خلال جهة الإدراك بتوظيف فعل (وجدت) وهو فعل يرتبط عند ديكرو بما يبديه المتكلّم من أحكام إزاء مدركاته[4]، كما أنّه يقترن في بعض أشكاله بالإدراك البصري ذي الصبغة المعرفيّة (فعل رأى). وحضور العين في(ش2) وهي أداة الإدراك الحسيّ المجرّد مع فعل تجرح، يُثبت جهة اعتقاد الرائي في مُدركاته وتوجيهه لقول إنّ مدينة الدار البيضاء مدينة لم يعد يُستطاب فيها العيش، وقد شُوّهت وتأذّت وباتت تذبح الصدر وهي "تتحطّم فوق رؤوس السكان"كما في(ش6). في هذا الشاهد لم تتأدى الجهة عن طريق الإدراك وإنّما عن طريق التقويم، فقد شبّه الرائي أعمال الترميم الكثيرة في الدار البيضاء بتحطّم المدينة فوق رؤوس سكّانها (كأنّها تتحطّم) وهو نفس ما فعله في (ش4) عندما شبّه لوحات الإشهار بالفطر الذي ينتشر في كلّ مكان. وهذه الصيغ التوجيهيّة تكشف عن الأحكام الذاتيّة التي يحملها عبد الرزاق المتوكّل عن المدينة التي شهدت تهاوي أحلامه، وتغيّرها مع تغيّره من مدينة سكينة وحياة

مستقرّة إلى مدينة لا مستقبل فيها.لذلك ترد بعض صيغ الدفعة الثانية من الشواهد حاملة لأحكام وتوجيهات موغلة في الذاتيّة ولا تحتمل التأويل من جهة ما تبوح به أو تتقصّد إليه قصدا. فمثلا:

(م1): "سألت حارس العمارة بانفعال عن سبب إهماله فأجابني أنّه ليس مسؤولا عن الشارع، بل عمال النظافة المضربين منذ أسبوع بسبب أجورهم الهزيلة ومخاطر الشغل وانعدام التغطية الصحيّة "(ثقل العالم ص7).

(م2): "غزت شوارع الدار البيضاء هذه السنوات ظاهرة الإعلانات الكبرى عن المواد الغذائيّة والهواتف النقالة وشركات السلف السريع ويمكن للإنسان أن يقضي اليوم كلّه يتنقّل بينها دون أن ينتبه إلى أيّ شيء آخر" (ثقل العالم ص12)

(م3): "رأيت وجهي معلّقا بإحدى لوحات الإشهار(سلف سريع ومريح). هذا الوجه الغائم، الحالم يعبّر عن وجوه شريحة عريضة من المجتمع المغربي الذي كان يدغدغ بلقب البورجوازيّة الصغيرة والذي تحوّل بفعل النهب العام والفوضى الإداريّة والصناديق السوداء والبنوك المحليّة والدوليّة والشركات المتخصّصة في السلف إلى بورجوازيّة فقيرة لا تملك شيئا"(ثقل العالم ص15).

إذا كان المفهوم العام للجهة يفترض منّا أن نميّز بين المقول(Le dit) وبين وجهة نظر المتكلّم إزاء هذا المقول. فإنّنا هنا لا نكاد نفرّق بينهما لأنّ أحكام الراوي على مضامين قوله مُلبسة فيها، تتجاوز مقام القول وحدوده، إلى التصريح المباشر عوض التلميح، والتقريريّة الفجّة أحيانا كما في (م3) عندما انتقل من الحديث عن الذات المفردة إلي الحديث عن المجتمع المغربي بلغة الماركسيّة القديمة المتلاشية مع دفق العولمة. فالسؤال في (م1) كان يفترض جوابا واضحا وبسيطا:س:سبب الإهمال؟ ج:لست مسؤولا عن الشارع، ولكنّه ولغاية ما صار مناسبة للحديث عن المضربين وأجورهم الهزيلة ومخاطر الشغل وانعدام التغطية الصحيّة. لقد تأدت وجهة النظر ومن خلالها جهة الحكم عن عمال النظافة في الدار البيضاء طيّ

إجابة عن غير المسؤول عنه من بواب العمارة، في شكل استطراد يوظّف الحاليّة (مضربين) والمفعوليّة (منذ أسبوع) والسببيّة (المفعول لأجله)، وقد استلهم لذلك ما يسميه محمد الخبو بالاستبدال التصويري، أو الصّوَري للمدينة. يقول محمد الخبو: "والتصاوير (...) ليست من قبيل الصياغات المجازيّة الظاهرة كما في الشعر فحسب، إذ قد نعثر هنا وهناك على تشابيه واستعارات تصوّر الأمكنة في المدينة، وإنّما التصاوير التي نعني نقف عليها في مقاطع نصّية وقد بدت تقريريّة في ذاتها، ولكن متى نزّلناها في سياق النصّ جميعه، أو في سياق المقامات التي ظهرت فيها المدينة وتمثّلاتها بدت لنا ذات أبعاد تصويريّة فذّة"[5]. لقد استبدلت الذات الرائية صورة مدينة الدار البيضاء بصورة الأوساخ عند باب العمارة مقترنة بتعليل البواب لذلك، جاعلة إياه يري بعينها ويحكم بجهة اعتقادها، فإذا بالاستبدال التصويري يلخّص وجهة نظر الذات المُدركة ممّا تُدركه لا وجهة نظر البواب ممّا يُمارسه ويُعانيه. وكذلك الأمر في (م2)، فظاهر المقطع السردي تحليل لما تُدركه الذات عن الإشهارات والإعلانات التي غزت الدار البيضاء ولكنّ تدبّر طريقة إجرائه يكشف لنا عن موقف هذه الذات ممّا يحدث في فضاء المكان أمامها[يمكن أن يقضي الإنسان اليوم كلّه ينتقل بينها دون أن ينتبه إلى أيّ شيء آخر] إنّ وجهة نظر الذات الرائية تجاه هذا المُدرَك الذي يلخّص نتاجات العولمة التي احتلّت المدينة جاءت حاملة لجهة الافتراض (يمكن) ولكنّها كذلك قضت بسطوة هذا القادم الجديد الذي يستلب الإنسان ويغيّر انتباهاته، ويكيّفها وفق لغة العصر[دون أن ينتبه إلى أيّ شيء آخر].

3. مدينة الدار البيضاء مدينة الذات المتكلّمة:

إنّ أهمّ ما ميّز الراوي الشخصيّة في هذه الرواية قدرته على اختيار العناصر المكانيّة التي تشكّلت منها الدار البيضاء قصصيّا، وقدرته على التصرّف في موصوفاته بحسب أهوائه وغاياته التي يسير إليها، وهو يناور المرويّ له. فغذت المدينة وفق هذا الملاحظ (Observateur) تتساقط فوق رؤوس سكّانها، وإذا العمارات مغشوشة والأزقّة محفّرة، والزبالة تكدّس في غير مكانها، والمهمّشون والمتسوّلون والحشّاشون يملؤون الطرقات. بل لا تكاد تمثّل المدينة في جزء منها إلاّ وله فيها نظر وتقويم وتركيب على نحو مخصوص. ولم تسلم من المدينة إلاّ لوحة الإعلان عن منظمة الطريق إلى المستقبل. يقول: "تخيّلت دخولي فضاء الصورة وعبوري الطريق وتمدّدي السعيد فوق العشب الأخضر والشمس والسكينة" (ثقل العالم ص6).

إنّ جلّ ما أُحيل عليه من أمكنة في رواية ثقل العالم كان من قبيل الأمكنة المشوّهة، السوداويّة، المحطّمة(مثل الإحالة على العمارات التي تهدّم لأنّ أصحابها تجاوزوا قانون البناء) أو الآيلة للسقوط(مثل إحالته على ترميم مركز البريد). ولأنّ الصنو بالصنو يذكر، ولأنّنا لا نجد سردا خارجا عن نطاق الموقع والوضع اللذين يسرد فيهما الراوي وقائع الزمان والمكان كما يذكر ذلك محمد الخبو في مداخل للخطاب الإحالي في الرواية، فإنّنا نري أنّ تتبّع غايات الراوي فيما يروي وعدم الاستسلام له أو لسلطته الوقتيّة، والبحث خاصة في أشكال توجيهه لمروياته والعدول بها عن جهاتها الأصليّة قد يكشف لنا مزيدا من أسرار تشويه المكان في "ثقل العالم". ويكفي التذكير هنا بالعتبة التي صدّر بها سعيد بوكرامي روايته والتي أورد فيها مُقتطفا مُترجما لخوان غويتصولو يقول فيها: "في ظروف مثل هذه التي أصبحت فيها محروما منذ أسابيع من نعمة الحرية، يكتشف المريض،الذي يفترض أن أكون أنّه يجابه نفسه وفي نفس الوقت يجابه السلطة الطبيّة وهو ما يدفعه إلى

تقليب رماد الماضي بحثا عن أجوبة أو إيضاحات بخصوص الأسئلة التي يطرحها على نفسه، دون انتظار مساعدة من أحد" (ثقل العالم ص1). هذه العتبة تحيل ولا شكّ على ما آل إليه مرجع القول الرئيسي في الرواية، منهارا، معزولا، تتناوبه الهواجس والكوابيس والرؤى في مشفى للأمراض النفسيّة، وهو ما زال يحلم بالركض طريقة للهروب على منوال فورست قامب(Forrest gump) ولكنّها كذلك، تلقي الضوء على تلك الصياغة السوداويّة أو المشوّهة للمدينة التي أهانت إبنها أو عزلته في ركن معتّم منها (أي المشفى) بعد أن كانت قد عزلته لأربع سنوات في قبر أرشيفيّ يقول عنه: "هنا قضيت أربع سنوات أراقب نقطا سوداء تغزو السقف يوما بعد يوم يمكنني أن أقدّر عددها السابق واللاحق وفي أيّ الفصول تقلّ وفي أيّها تتكاثر"(ثقل العالم ص5). إنّ إحالة الراوي على القبر في مرحلة ما قبل الانهيار وعلى الشقة شبه الفارغة وعلى العاطفة الذاوية، والطلاق الأليم والوحدة القاسية والمعاملات المصلحيّة التي تحكمها الرشوة، وعلى الغبار والروائح الكريهة والحفر والمزابل والأبنية المغشوشة والمياه العطنة..يصبّ كله في خانة الانتقام من المدينة التي شوّهت حلمه وخسفت به الأرض في قبر الأرشيف لأنّه كان مستقيما لا يقبل لغة عصره. فكانت العمليّة ارتداديّة شوّه بموجبها المكان الذي شوّهه. وظلّ يطارد الحلم أو الوهم حتى انتهى به الأمر إلى الانهيار.

III. على سبيل الخاتمة:

مجمل القول ممّا ذكرنا إنّ وجهة نظر الذات المُدركة لمدينتها حملت جهة اعتقادها فيها، وتحدّدت وفق جملة من المقوّمات منها:

* تمثيل مدينة الدار البيضاء في أماكن منهارة أو بصدد الانهيار، وقد غزتها العولمة وتكنولوجيا العصر الحديث ممثّلة في الإعلانات المبهرة والمقاهي الفخمة التي تجذب إليها شباب العصر وأهل الموضة من الضائعين، المعطّلين.

* تكثيف التفاصيل عند الإحالة على بعض الأماكن وخاصة العمارات الاقتصادية التي تحلّ بها مشاكل المتزوجين حديثا ولكنّها تفتح آفاق السرقة والغشّ والطمع.

* إطلاق الأحكام التوجيهيّة الكثيفة كما رأينا تجاه تمثيلات المدينة، والشروح والاستطرادات التي لا معنى لها إلاّ أن تثبت موقف الناقل المدرك من منقولاته كما في إحالاته على القروض السريعة والإعلانات، أو العمارات الاقتصادية المغشوشة، وفتيات المقاهي.

إنّ المبرّرات النصيّة المُسوّغة لدراسة دور الجهة في التشكّل القصصي للمكان في هذه الرواية متعدّدة، متنوّعة أثبتنا من خلال بحثنا في بعض أوجهها، أنّ التشكّل القصصي لمدينة الدار البيضاء، كان محكوما لا بمنطق النصّ الروائي فحسب وإنّما بما أملته أحكام الذات المتكلّمة وأهواؤها وقصديّة التشويه عندها التي لا تنبع من فراغ بل من ارتداد انتقامي شوّهت بموجبه المكان الذي لفظها مع سابقيّة الإصرار والترصّد، وهي تقلّب رماد الماضي بحثا عن أجوبة أو إيضاحات بخصوص الأسئلة التي تطرحها على نفسها.

شواهد من رواية "ثقل العالم" لسعيد بوكرامي"

سلسلة (أ) من الشواهد:

(ش1): "أشعّة الشمس مضغوطة تنفلت من السياج الحديدي للكوة الوحيدة لهذا القبر الأرشيفي"(ثقل العالم ص5).

(ش2): "في الطريق إلى العمارة رأيت الخيام منصوبة حديثا يقطنها سكان العمارة المتهدمة. أمّا عمارتي فوجدت أمامها أزبالا تتصاعد منها رائحة العطن التي تجرح العين وتذبح الصدر"(ثقل العالم ص7).

(ش3): "كلّما دخلت زقاقا إلاّ وجدت أشغال حفر، وكأنّهم يبحثون عن شيء ما لم يعثروا عليه بعد.مازالوا يبحثون عن كنز كان أبي يقول ساخرا" (ثقل العالم ص9).

(ش4): "لوحات الإشهار تنتصب كالفطر في كلّ مكان" (ثقل العالم ص15).

(ش5): "فتيات المقهى بين الفينة والأخرى ينسحبن إلى المراحيض لتعديل وجوههنّ استعدادا للسهر وعمل الليل تماما كالكثير من فتيات النهار اللواتي يدفنّ أجسادهنّ داخل المعامل والشركات ولا يجنين منها سوى البؤس والأمراض النفسيّة والعضويّة"(ثقل العالم ص18).

(ش6): "..وانصرفت أحاذر أن تسقط فوق رأسي بعض ألواح الدعم التي يستعملها العمال المنهمكون في ترميم مركز البريد. كثرت أوراش الترميم في الدار البيضاء وكأنّها تتحطّم فوق رؤوس السكان" (ثقل العالم ص25).

سلسلة(ب) من الشواهد:

(م1): "سألت حارس العمارة بانفعال عن سبب إهماله فأجابني أنّه ليس مسؤولا عن الشارع، بل عمال النظافة المضربين منذ أسبوع بسبب أجورهم الهزيلة ومخاطر الشغل وانعدام التغطية الصحيّة" (ثقل العالم ص7).

(م2): "غزت شوارع الدار البيضاء هذه السنوات ظاهرة الإعلانات الكبرى عن المواد الغذائيّة والهواتف النقالة وشركات السلف السريع ويمكن للإنسان أن يقضي اليوم كلّه يتنقّل بينها دون أن ينتبه إلى أيّ شيء آخر"(ثقل العالم ص12)

(م3): "رأيت وجهي معلّقا بإحدى لوحات الإشهار (سلف سريع ومريح).هذا الوجه الغائم، الحالم يعبّر عن وجوه شريحة عريضة من المجتمع المغربي الذي كان يدغدغ بلقب البورجوازيّة الصغيرة والذي تحوّل بفعل النهب العام والفوضى الإداريّة والصناديق السوداء والبنوك المحليّة والدوليّة والشركات المتخصّصة في السلف إلى بورجوازيّة فقيرة لا تملك شيئا"(ثقل العالم ص15).

المصدر:

"ثقل العالم" :سعيد بوكرامي نشر مجلة "الكلمة" الإلكترونيّة، السنة الأولى، العدد 12 يناير 2007 نسخة اللغة العربيّة، إشراف: صبري حافظ.

الموقع: www .alkalima.com

المراجع:

1.العربيّة :

●حافظ (صبري): الرواية والواقع: متغيّرات الواقع واستجابات الرواية الجماليّة (مقال) بمجلة إبداع، العدد العاشرأكتوبر 1992.

●الخبو (محمد): الخطاب القصصي في الرواية العربية المعاصرة"، دار صامد للنشر والتوزيع وجامعة صفاقس تونس 2003.

* "قراءات في القصص"، مكتبة علاء الدين، صفاقس 2002

*"مداخل إلى الخطاب الإحالي في الرواية "مكتبة علاء الدين، صفاقس 2006

●الشريف (محمد صلاح الدين): تقديم عام للاتجاه البراغماتي ضمن كتاب أهم المدارس اللسانيّة، منشورات المعهد القومي لعلوم التربية، تونس، 1990.

●قينيني(عبد القادر): المرجع والدلالة في الفكر اللساني الحديث (ترجمة وتعليق)، نشر أفريقيا الشرق، بيروت لبنان 2000.

2.الأجنبيّة:

●ABRIOUX (Marielle) : « Narratologie » in nouveau dictionnaire encyclopédique des sciences du langage » Ed. Seuil 1995.

●Boileau(Laurent Danon) : « Produire le fictif :linguistique et écriture romanesque », Ed Klincksiek, Paris,1981.

●DUCROT (OSWALD) &SCHAEFFER (J.Marie) « Référence » in « Nouveau dictionnaire encyclopédique des sciences du langage » Ed, Paris, 1995. Seuil,

●GENETTE (Gérard) : ♥ «Fiction et diction » Ed, Seuil, Paris 1991.

♥ « Figures III» :Ed seuil, col poétique, paris 1972.

♥ « Nouveau discours du récit» Ed seuil, col poétique, paris 1983.

●Searle (John R.) : «Sens et Expression : étude de théorie des actes de langage» Ed: Minuit, Paris, 1982.

●FOWLER (Roger): «Linguistic criticism, (second edition),First published, (Oxford), Second edition, first published as an Oxford University Press paperback, 1996

●LE Calvez (Eric), « a description modalisée (un problème de poétique génétique à propos de l'énonciation de l'éducation sentimentale), » in Poétique n°99, Sept, 1994.

●Rabatel (Alain) ; «Quand voir c'est (faire) penser, motivation des chaînes anaphoriques et point de vue » in Cahiers de narratologie, n°11

●Ruth (Ronan), « Possible world in literary theory" First published, Cambridge University press, 1994

●Simpson (Paul): «Language, ideology and point of view», Ed: Routledge, London, 1993.

الهوامش

---

1 – أنظر محمد الخبو: مداخل إلى الخطاب الإحالي في الرواية، نشر مكتبة علاء الدين، صفاقس 2006 ص ص170–177

2 – نفسه ص165.

3 – يلاحظ محمد الخبو أنّ الإثبات عند منظّري الجهة لا يعدّ من أنواع الجهات في اللغة، أو هو معدود منها ولكنّه معتبر من درجة الصفر.

4 –O Ducrot: Les mots du discours, ed, minuit 1980, P p 60-78

5 – محمد الخبو: مداخل على الخطاب الإحالي، سبق ذكره ص54.